تأمُّلات في «نوّار نيسان»

سعاد الجوجو

مررت قبل أيام بالموقع الذي نفذ فيه مهرجان نوار نيسان، وهناك أشار لي زوجي قائلاً: هنا نفذنا نشاط «إحنا والبحر».

سرح بي خيالي إلى تلك الأيام القليلة، وكيف بدأنا هذا النشاط، أذكر عندما بدأنا بوضع الأفكار والتخيلات لهذا النشاط، وكيف كانت تتوالى علينا هذه الأفكار، كانت لنا تصوّرات معينة، ولكن على أرض الواقع اختلف الحال.

في أول الأيام كان الإقبال جيداً جداً، والأنشطة مختلفة وهادفة من صنع النافورة، وحوض السمك، إلى تيلي ماتش البحر، والكتابة بالزلف، والجدارية، ورقصة البحارة، وغيرها من الأنشطة الكثيرة.

سمعت أحد المصورين وهو يصور تيلي ماتش البحر يقول لزميل له: لقد أعادونا إلى أيام الصبا والشباب بهذه الألعاب من صيد الأسماك والجري ونقل الماء. تساءلت بيني وبين نفسي إذا كان هو يحن إلى أيام الطفولة، فكيف بأطفال لم ينعموا بطفولة حقيقية وعانوا من ويلات الحروب؟

أذكر توتري في أول يوم في المهرجان لوصولنا متأخرين، وعدم جاهزية الزاوية التي سأعمل بها أنشطتي، لاحظت انعكاس ذلك على طالباتي، فوقفت مع نفسي وقلت ماذا تفعلين؟ ليس هذا ما جئنا من أجله، هدأت ثم بدأنا النشاط كما خططنا وكما لم نخطط.

إحدى الطالبات ألحّت عليَّ أن تقود أحد النشاطات بنفسها، وحسب ما ترتئيه، وقد كان، وإذ بها تقوده بكل سلاسة وتفاهم وانسجام كبير مع المشاركين. طالبة أخرى ليست من «المتفوقات أكاديمياً»، أحبت الحضور والمشاركة، قمت بتشجيعها، فاذا بي أرى اندفاعاً وحماساً وإبداعاً لم أعهده فيها من قبل. أدركت عندها أن الإنسان، وبخاصة الطفل، يعطي أفضل ما عنده ويبدع إذا أحب الشيء، وإذا وجد الدعم المناسب.

في ثاني الأيام، وتحديداً يوم الجمعة، هذا اليوم الذي لم يتوقعه أحد من القائمين على الأنشطة بهذا الزخم والجمال والنشاط على الرغم من لهيب الحر. عندما ذهبت مع عائلتي لم أعتقد أننا سنرى شيئاً كهذا. لقد أحسست بطاقة هائلة وغير محددة تنبعث من الجميع على مختلف الأصعدة، الكل كان منغمساً في ما هو فيه بكل أحاسيسه، ويتأمل في ما يفعل بشكل كبير وتركيز أكبر، كان مهرجاناً كبيراً، حيث الجميع مشاركون؛ زوار وأطفال وكبار تعلو البسمة وجوههم، والسرور والدهشة والإعجاب في عيون الجميع.

عندما بدأنا باقتراح المشاريع على الطالبات، أبدين قبولاً وحماسة رائعين، والمعظم أراد المشاركة وقيادة النشاط، وعلى الرغم من أنه لم يكن بمقدورنا ذلك، وانتقينا مجموعة، فإن المعظم عند توزيع بطاقات الدعوة إلى المهرجان، أتى وشارك وأبدع الشيء الكثير.

طالبة وعائلتها يعملون معاً

في مشروع «يلا نعمل مينا»، طرحت الفكرة على الطالبات، ومن ثم انهالت عليّ الأفكار من الطالبات، فمنهن من رسمت الميناء رسماً هندسياً مبدعاً، وأخرى زارت هي وأهلها ميناء غزة ذهاباً وإياباً لتحصل على تصوّر دقيق له، وواحدة استعانت بالإنترنت لإحضار صور جوية للميناء لتقوم بتنفيذ النموذج على الخشب.

أخرى استعانت بوالدها وأخيها الصغير وعمال لديهم في أرض خالية يملكونها، فقاموا بحفر المكان ووضع المياه وبناء السور من الحجارة، وقضت الساعات بل الأيام هي وعائلتها لبناء نموذج رائع للميناء، حتى أنها استعانت بمصنع الإسفنج لبناء نماذج العمارات والسيارات والسفن، كل ذلك دون مساعدة حقيقية مني سوى بعض الإرشادات والأفكار.

شرحت لي كيف تغلبت على المشاكل التي واجهتها مثل تسرب المياه، وكيف استبدلت أكياس النايلون الرقيقة بأخرى سميكة لمنع تسرب المياه، وكم كانت تشع الفرحة والفخر والسعادة في عينيها وهي تريني صوراً لنتيجة عملها، وتحضر لي النماذج التي صنعتها، وكيف ستفعل ذلك مرة أخرى.

استوقفني ذلك وتساءلت لمَ فعلت ذلك علماً بأنها متفوقة دراسياً ولا تحتاج إلى علامات إضافية؟ هل من أجل أن تعبّر عن نفسها أم من أجل إدراك ذاتها؟ أيضاً تعجبت من الدعم الكبير الذي وفّره الأهل لها وقضائهم الأيام في تجربة النشاط واستعانتهم بعمال ومصنع الإسفنج، وتمنيت أن كل الأهالي -وأولى منهم المعلمون والعاملون في منظومة التربية والتعليم- أن يقوموا بدعم الطلبة ليس أكاديمياً فحسب، بل بتطبيق مكثف لمثل هذه الأنشطة التي ينغمس فيها الطلاب بشكل كبير وفاعل، ويكون فيها التعلم أفضل وأرسخ وهي تعتبر حافزاً لهم للتعلم البعيد المدى الذي يستخدم في مواقف حياتهم الجديدة، فيكون الإنتاج والإبداع ونكون قد ساهمنا في خلق جيل واعٍ منتج متطور. فـ«التعليم ليس ملء دلو، ولكنه إيقاد شعلة» (ويليام بتلر ييتس - شاعر إنجليزي وكاتب مسرحي)، «والطفل الذي اقتصر تعليمه على المدرسة لم يتعلم» (جورج سانتيانا).

حلّ المشكلات .. إبداع

عندما اقترح علينا تنفيذ النشاط في اليوم الثاني، وقد كان مقرراً في اليوم الثالث وفي موقع مختلف، أذكر أنه لم تكن لدينا جميع الإمكانيات، ولم يتوفر لنا الماء وهو العنصر الأهم، وكيف سنحفر هناك، لكن الطالبات، كل بدورها، أخذت تدلي بدلوها، واتفقن على رسم المياه بدلاً من الحفر وتعبئة المياه، وكيف سينفذ النشاط.

إحدى الزائرات وهي ولية أمر طالبة نظرت إلى النماذج واقترحت أن يكون النموذج بحجم أكبر ليتناسب مع نماذج العمارات والسفن الموجودة وقد أخذنا برأيها. وفي لحظة، الجميع استوعب الفكرة بسرعة عجيبة، رأيت الأطفال أولاداً وبناتاً والكبار يجرون في كل الاتجاهات لإحضار الحجارة لبناء سور الميناء وحدوده، منهم من انهمك برسم المياه الزرقاء على النايلون بالفرشاة، ومنهم من استخدم الإسفنج والقماش عندما لم يجد ما يرسم به، أي شيء خطر في بالهم حقاً، لقد رأيت العجيب والمدهش، هناك بعض الصغار رسموا الأعلام الفلسطينية، وبعضهم زين السفن ورتبها في «المرسى» في ترتيب جميل فني واعٍ.

وجدت في النموذج سفينة تضعها طفلة صغيرة عند «بوابة الميناء» بعيداً عن السفن الأخرى، سألتها: لمَ وضعتها هناك؟ قالت: أريد أن أشعر بالحرية، أسافر لأرى العالم الذي لم أره من قبل بعيني، أسافر لأزور أطفال الضفة وأريهم ما يفعل أطفال غزة.

ساعتها تضاربت المشاعر داخلي: الحزن من أجل أطفال حرموا من التنقل بحرية، وحرموا من مثل هذه الأنشطة في الغالب، ومن ناحية أخرى شعرت بالسعادة أن هذا المهرجان قد حقق أهدافاً كثيرة، فالأطفال مع الكبار أبدعوا وأحسّوا بذواتهم، فكروا وتغلبوا على الصعوبات التي واجهتهم، استخدموا البدائل، طوّروا أنفسهم، ومارسوا حقهم في المشاركة في بيئة خالية من التمييز، بحيث ذابت الفروقات بين معلم وطالب، بين كبير وصغير، بين طالب متفوق وطالب عادي وضعيف، هذا بجانب استمتاعهم وقضائهم وقتاً مفيداً ممتعاً مشوقاً هم بحاجة ماسّة لمثله على فترات، فبعضهم لم تسنح له الفرصة من قبل ليمارس مثل هذه النشاطات، ومعظمهم عانى من ويلات الحروب، ولم يتسنَّ له أن يفرغ طاقته، ولذلك شكراً لكل من فكر واقترح وساهم وشارك في إنجاح مهرجان نوّار نيسان «نحن والبحر»، ومزيداً من الأنشطة والنجاح.

معلمة في مدرسة بنات غزة الإعدادية «ب»

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.